الفصل الثاني
نظرة السومريين إلى المرأة
(بلاد الرافدين)

أما المرأة في المجتمع السومري فكانت مسحوقةً بشكل كاملٍ ومطلق لا يحتاج إلى توضيح أو بيان. فكانت لا تمتلك شيئاً ولا ترث شيئاً ، ولا تملك أن تتصرف بأي نوع من التصرفات التي يملكها البشر ، بل وكان يجوز للرجل أن يقتل زوجته في بعض الحالات ، ويحق له أيضاً إذا ضاقت به الحياة أن يبيعها في سوق العبيد ليسدد بعض ديونه ويؤدي بعض الاستحقاقات التي وجبت عليه ، ولا يعتبر في ذلك متعسفاً أو آثماً أو فاجراً، وإنما يعامل وكأنه رجل يقوم بممارسة حق طبيعي من حقوقه التي كفلها له المجتمع والقانون[1]، فالمرأة في فلسفتهم الاجتماعية من ملكيات الرجل ويتصرف فيها كيف يشاء.

ونتيجةً لهـذه النظرة الدونية للمرأة فقد انتفى التساوي بينهما في شتى المجالات ، فعلى سبيل المثال ينظر إلى الرجل الزاني بأنه محق ولا يسأل عما يفعل ، وأما المرأة التي تزني فينظر إليها بأنها فاجرة وتستحق القتل ، وفي حالة زواج هـٰذه المرأة وممارستها للزنى أثناء قيام الزوجية يحكم عليها حسب تلك القوانين الاجتماعية السائدة في الحضارة السومرية بالإعدام ، مع العلم بأن الرجل مهما ارتكب من هـٰذه الأعمال لا يسأل سواء أكان متزوجاً أم غير متزوج ، فلا يناقش ولا يُسأل عما فعل ، أما الحياة الدينية عند هؤلاء فكانت عبارة عن معابد يعبدون فيها الأوثان ، وقد هيئ للكهنة نساء وخليلات يمارسن معهن الدعارة والفجور ، ولا ينظر إلى هـٰذا العمل بكونه مشيناً أو خاطئاً

---

(١) ديورانت ويل - م س - ج٢ - م ١ - ص: ٣٢.

باعتبار أن هؤلاء الكهنة قد أثقلت كواهلهم بأعباء دينية ثقيلة ، ولا بد لهـذا المجتمع أن يقدم لهم العون وشتى وسائل الارتياح التي تؤمن لهـذا الكاهن أو هـٰذه الطبقة من الكهنة الراحة الجنسية والنفسية والمادية وكل أنواع اللذات التي يستطيعون الحصول عليها .

وكانت المرأة تتشرف عند اقترابها من أحد المعابد ويقوم أحد الكهنة بمضاجعتها ، ويعتبر عملها قرباناً إلى الخالق ـ في زعمهم ـ وتستحق عليه الثواب .

وكان المجتمع البابلي يفاخر بضم بناته وأخواته إلى هـٰذه الطائفة من الخادمات والسراري اللواتي يقدمن خدماتهن الجنسية للكهنة[1] ، وترى أن هـٰذه الطبقة من عاهرات المعابد انتشرت انتشاراً كبيراً ويتعاملون معها وكأنها مهمة دينية مقدسة لا يمكن أن يشار إليها بشيء من الشك أو الريب أو التخطيء ، واستمرت هـٰذه الظاهرة حقباً طويلةً ، وأما المجتمع البابلي الذي كان يقطن في بلاد ما بين الرافدين فقد انتشرت فيه ظاهرة دعارة عجيبة ، وكل ذلك من شأنه أن يسيء إلى المرأة كرامةً وجسداً ونفساً وخلقاً وقيمةً .

وكان من القواعد الاجتماعية والدينية المقدسة أن تتحول المرأة قبل أن تتزوج من العذرية إلى الثيوبة ، ولا يجوز أن تبقى الفتاة قبل زواجها بكراً عذراء شريفة ، وإذا نظرت إلى كيفية إخراج الفتيات إلى الثيوبة تعجبت كل العجب ، فلا بد أن تتوجه المرأة إلى معبدٍ من معابدهم يسمى معبد الزهرة فتجلس هناك مع محفل من النساء ، ثم يمر بهن رجال غرباء (ويشترط تبعاً لعقيدتهم أن يكونوا غرباء)[2] فيتجولون بين هؤلاء النسوة اللواتي قد جلسن متقاربات ووضعن على رؤوسهن تيجاناً (جمع تاج) من الحبال ، ثم يتخير هـٰذا الرجل بينهن فيلقي بقطعةٍ فضيةٍ على إحداهنَّ ، ويجب عليها (أي المرأة) أن تتبع خطواته إلى خارج المعبد ، ويقوم بمضاجعتها لتصبح أهلاً للزواج من غيره حصراً ؛ لأنه يحرم عليها أن تدخل في الحياة الزوجية قبل أن تُفضَّ بكارتها من رجل غريب ، ولا يؤبه إلى قبول المرأة بذلك أو عدم قبولها ، ولا ينظر إلى هـٰذه القطعة

---

(١) ديورانت ويل ـ م س ـ ص : ٣٢ .

(٢) وأقصد بالغرباء غرباء عن المرأة لا غرباء عن المجتمع البابلي .

الفضية بكونها ثمينة أو رخيصة؛ لأن القيمة التي ينشدها هذا المجتمع هي القيمة المقدسة تبعاً لعقائدهم الكهنوتية ، وعندما تتردى هـذه المرأة في الثيوبة يحق لها أن تتزوج ممن يشاء وليها، وهـٰذه قاعدة تسري على أغلبية النساء البابليات، فترى أن هـٰذا المعبد يعج بمئاتٍ ومئات من النساء اللواتي يمارس معهن العهر والبغاء يومياً[1] ، وكانت الدعارة منتشرة في بلاد بابل انتشاراً كبيراً ، وكيف لها ألا تنتشر وقد ألحق بكل معبدٍ من المعابد الكهنوتية حدائق خاصة تنتشر فيها البغايا اللواتي يقدمن خدماتهن المجانية إلى الكهنة تقرباً وتباركاً وتقدساً.

فكانت هـٰذه الممارسات في المجتمع البابلي ينظر إليها نظرة بعيدة عن التحريم أو التخطيء. بل أقول وبشكل واضح بأنها ـ لديهم ـ جزء من الممارسات الدينية التي تنسجم مع العقيدة! وبذلك الحال انتشرت الرذيلة في بلاد بابل ، فكان هناك أنواع كثيرة من الدعارة تتوجها دعارة الكهنة واللاهوت ، وانتشرت أنواع كثيرة من الحانات التي تديرها النساء وتقدم فيها الخدمات الجنسية ، بالإضافة إلى الخمور وكل ما يستتبع ذلك ، ولا نستطيع من الناحية العلمية أن نجزم ونعمم فنقول: إن جميع النساء البابليات كنَّ يعشنَ هـٰذه الحياة الإباحية ، فلقد ثبت أيضاً أن هناك طبقة من النساء الآشوريات التي كانت تعتبر من الطبقات الرفيعة في المجتمع يرتدينَ الحجاب ويفصلنَ عن الغرباء ولا يعرضنَ لهـذه المزالق ، فلدينا حقائق تاريخية شيء منها يثبت أن كثيراً من النساء البابليات كنَّ يمارسنَ هـٰذه الأساليب الإباحية ، وشيء آخر يؤكد أن هناك طبقةً متميزةً من النساء يفرض عليهنَّ الحجاب ويفصلنَ عن الغرباء ، فالمبادئ الاجتماعية الآشورية تتناقض مع نفسها وتحدث تمايزاً طبقياً في هـٰذا المجتمع ، فهناك نساء يعاملنَ كعفيفات ويحظينَ باحترام كبير في المجتمع ، ويُلزمن بالعفة والحجاب ، وهناك الكثيرات من النساء يعاقبنَ إذا وضعنَ الحجاب على رؤوسهنَّ أو التزمنَ بالعفة والأخلاق[2].

* * *

(١) المرجع السابق ـ ص: ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٢) موسكاتي ستينو ـ س ص: ٨.